أثر المولديات في الشعر الشعبي للأطفال

د. زهرة خواني

المركز الجامعي بغلزان

هذه الدراسة عبارة عن محاولة لتدوين أغاني و أناشيد الأطفال الشعبية في بلادنا في إطار مشروع إصدار ديوان الأطفال الشعبي في الجزائر، علما أن هذه النصوص تعيش الآن في قلوب بعض المهتمين بحفظ التراث الشعبي اللامادي من قصص و حكايات و أساطير و ألغاز و حكم و أشعار، و لكنهم يغادروننا يوما بعد يوم و يدفن معهم هذا التراث الزاخر دون أن نستفيد منه أو نفيد به خاصة أن: " الشعر الشعبي، هو الذي يعبر بصدق عن حياة الشعب من الأحاسيس و أفكار و قيم اجتماعية بلغة الشعب البسيطة التي يفهمها و بالمعاني و الصور التي تناسب ذوقه مما يجعله يتواتى بين الناس عن طريق الرواية الشفهية، و لا بأس عن طريق وسائل الطباعة أو وسائل الإعلام الأخرى"[1] و هذا ما نرجوه فعلا أن يحدث " و لا أظن أن هناك أحسن من التدوين و الجمع و التقييد إن أردنا بقاءه بيننا و لمن بعدنا من الأجيال"[2].

إن البحث في أغراض الشعر الشعبي إنما هو إمتداد لتلك الموضوعات التي عرفها الشعر الفصيح على مر العصور و الأزمان.

" يمكن القول بأن الشعر الديني يمثل نموذجا خاصا في الشعر الجزائري، هو أقرب إلى الروح الإسلامية منه إلى النظرة الإقليمية أو القومية"[3].

وتعد شخصية " محمد" صلى الله عليه وسلم أشهر و أقوى شخصية تاريخية على وجه الأرض على الإطلاق، ذلك لما تميز به الرسول الكريم من أخلاق ربانية، و مدى تأثيره في تغيير معتقدات الناس الدينية ، فصار بذلك علما من أعلام الإسلام، احتل قلوب و مشاعر الناس بل و عقولهم، فصار مدعاة لفخر المسلمين و التعلق به، حبا و شوقا و قدوة مما دعاهم إلى إحياء ذكرياته التاريخية من مولد و هجرة و إسراء و معراج، و جعلها محطات تاريخية دينية للوعظ و التذكير و التعبير عن الحب العميق لهذا النبي الكريم المرسل من عند الله.

" و يقال إن أول من أحدث المولد: الملك الظاهر المظفر في بلاد الشام في مطلع القرن السابع للهجرة، و أول من أحدثه في مصر الفاطميون"[4]الذين أكثروا من الاحتفالات و الأعياد، و شاركوا رعاياهم من الأقباط في الاحتفال ببعض أعيادهم مثل مولد الرسول عليه الصلاة و السلام بالحلوى التقليدية المعروفة و بتماثل الفارس و الحصان و القلعة و عروس المولد من الحلوى. أما في المغرب العربي فيقال أن المرينيين كانوا يحتفلون بالمولد النبوي، و كان سلاطينهم يحيونه ليلة يومه و سابعه، و أن الذي حث على ذلك هو (الفقيه العزفي) و قد جعلوا من المولد النبوي عيدا رسميا، و أول من اعتنى بتعظيمه في البلاد المغربية و أظهر فيه شعائر الولادة المحمدية السلطان أبو عنان المريني، ثم اقتدى به بنو أبي حفص في الديار التونسية[5].

عرفت تلمسان خلال حكم الزيانيين و خاصة في دولة أبي حمو موسى الثاني (الذي تولى الحكم من سنة 760هـ إلى سنة 791هـ)، و قد سن عادة الاحتفال بالمولد النبوي في السنة الأولى من توليه الحكم، و ذلك أسبوعا قبل اليوم المصادف للمناسبة و أسبوعا آخر بعدها، فانتشرت هذه العادة في القرى و المدن المجاورة حتى صارت عامة لتشكل لونا خاصا من ألوان الشعر الشعبي في الجزائر.

يعمل الشعر الديني للأطفال على تقوية الروح الدينية بين أفراد المجتمع و يزودهم بالقيم و المفاهيم الضرورية و تمنحهم المبادئ الأخلاقية، في مختلف المناسبات الدينية، كالحج و صيام شهر رمضان و أعياد الفطر و الأضحى و عاشوراء و اختتام حفظ جزء من القرآن أو كله و المولد النبوي.

و يمكن أن نميز بين نوعين من المولديات الشعبية للأطفال: أولهما: النشيد: و قد عرفه أحمد زلط عند الأطفال بأنه: " لون أدبي متعدد يؤلف و يلحن ليخاطب جمهور الطفولة، بل الفتيان، و هو منظومة شعرية صدوية الإيقاع اللغوي و الموسيقي، يردده الأطفال بصوت عال، فالنشيد و التناشد رفع الصوت بالغناء، و الأطفال ميالون بطبيعتهم إلى التغني بالأناشيد، و هم ينشطون لذلك، و بها يفرحون و تطبع في أذهانهم و نفوسهم المثل و القيم المرجوة في تنشئتهم"[6]. و في أبسط تعريف له فإن النشيد الموجه للأطفال " نظم شعري يتغنى به الأطفال بعد تلحينه و يميل النشيد إلى البساطة و التركيز و التكرار و الإيقاعات الصدوية"[7].

ثانيهما: الأغنية: و عرفها عبد الفتاح عبد الكافي بأنها " نوع من أنواع الإبداع الشعبي، فهي غنية بفكرها، زاخرة بألحانها، عظيمة بمعانيها، إنها الصوت المحبب للنفس، و الوجدان المتدفق الذي لا يقبل التزييف، هي للناس جميعا كالأرض و الماء و النار".[8]

و لعل أنشودة المولد التي يرددها الأطفال بمناسبة المولد النبوي الشريف خاصة البنات و هن يرتدين الأزياء التقليدية في جو يغمره الفرح و البهجة باقتناء هذه الأزياء المخصصة للعرائس في مواسم الزفاف و استعدادا للسهر حتى طلوع الفجر ينشدن:

آمُــولودْآمُــولودْ هَــذا مُــولودْ النبِــي

وَالمَلايْكه ف السْمَا يَفرْحُوبَاوْلادَة النبِــي

آعِيشه وْلا ترْقَــدِي وَاللِيلَــة يَــزَّادْ النبِــي

وَاللـــوحَه وَالكتـــابْ وَالخط جْدِيدْ ألاله فاطمَه

و عن مولده و نشأته:

يَامْنَة قبْضَت ف الحبْل وَحْـلِيـمَـة رَبَّـاتـه

آسَعْدِي مَنْ شاف النبِـي يَعْطِـيـنـا أَمَـارَاتـه

عَيْنَـهْ كحْـلا مْهَدْبَة وَالشـوشَـة وَاتـاتـه

و يتحول الحديث عن فاطمة الزهراء رضي الله عنها:

قال لهَا فاطمَة بَنتِي دْمُوعَكْ جَرْحُوا قلبِي

مُحَمَّدْ ف الصلا وَاقف وبْنَتهْ جَايْزَا[9] تبْكِي

قالت بُـويَا حْنِينِي خفتكْ تمْشِي وَتخلينِي

وَصيِّـت عْلِيـكْ سِيـدْنَـا جَبْـرِيـل

يَرْبَطلكْ يَدْ مْنَ الحَنة والثانية مـن الجنة[10]

يختم بـ:

"الليلة لِيلة الجَمْعَة وَالجَمْعَة خالقهَا رَبِي

عُودُونِي عُودُونِي وَامْحَايْنكْ لا يْجُوزُونِي[11]

أنا رَاقدْ فِي مْنَامِي وَرْجَـال الله هَزُّونِي[12]

حَلوا قلبِي بَالمَفتاحْ وَرْمَاوْ الثـوبْ عْلِيَ[13]

و قد تأتي في أغلب الأحيان خاتمة الأنشودة كما يلي:

آعِيشه وْلا ترْقــدِي حلّـي البَـابْ وَاصنّتِي

وَالليلــة يَــزّادْ النبِــي

زَادْ النبِــي بَالجَمْعَة وَاقــدَاوْ عْلِيهْ الشمعــة

وازَادْ النبِي بْالاثنينْ وَاقــدَاوْ عليه القنديــل[14]

لقد " امتدت تأثيرات شعر المدح إلى الشعر الشعبي الذي لم يخرج هو الآخر في أغراضه عن أغراض الشعر العربي المعروفة فيه، فغلب هذا الغرض على شعراء الملحون، مثل الشاعر لخضر بن خلفون و مصطفى بن براهيم و محمد بلخير و عبد القادر الخالدي و غيرهم"[15].

و لم يكتف الشعراء الشعبيون بالتزام مختلف الألوان من الأغراض الشعرية بل أخضعوا قصائدهم للمعاني التراثية و المضامين التي عهدها فن المديح النبوي، " فالمديح هو ملامسة خفايا الممدوح النفسية و رغبته في الظهور بمظهر الكبرياء و الرفعة من خلال الأخلاق و الخصال التي يذكرها المداحون عن الشعراء في مدح الرسول صلى الله عليه و سلم، سواء منهم شعراء اللغة الفصحى أو العامية، أن يذكروا الشمائل المحمدية و يظهروا شجاعة الرسول صلى الله عليه و سلم و على ما يبدو فإن هذا الاتجاه في المدح أصبح أسلوبا مؤسسا عند الشعراء الشعبيين"[16] و كان لاستدعاء الشخصيات التاريخية التي عاشت مع الرسول صلى الله عليه و سلم و شاركته في دعوته في السراء و الضراء مثل عائشة و فاطمة الزهراء رضي الله عنهما و كذلك الملائكة و سيدنا جبريل عليه السلام.

على شاكلة قصيدة " عبد الرحمن بن محمد بن موسى[17]حيث افتتحها بالتشيع و الولاء للرسول (ص) و آل بيته الأطهار و هي مؤلفة من واحد و عشرين بيتا قائلا:

"أَمولاي بالمختار من آل هاشم و آله و الأولاد كل و قاسم
و فاطمة الزهراء بعلها و نحلها و عباس الأرضى كثير المعالم
و أصحابه الصديق أفضل من بعد المصطفى نحل آدم"[18]
مشى

و قد جارتها في ذلك الأبيات:

آعيشةو لا ترقدي و الليلة يزاد النبي

و اللوحة و الكتاب و الخط جديد ألالةفاطمة

يامنة قبضت فالحبل و حليمة رباته

وصيت عليك سيدنا جبريل

فشخصيات: عائشة– فاطمة– يامنة– جبريل كانت كلها مساهمة و قد أحاطت شخصية الرسول بالرعاية و الحنان و الحب و الإسهام في الدعوة للإسلام.

و قد وردت قصيدة أبناء منطقة عين الصفراء المؤلفة من أربعين بيتا تعتز كلها بالنبي الكريم و تسعد و تفخر بكل من كان له صلة بمول النبي و نشأته و كل من عايشه و عرف قدره في مثل قولهم:

" سعدك يا للي مفتاح الجنة
رقيت[19]محمد
سعدك يا للي قمطت محمد مفتاح الجنة
سعدك يا للي نكعت[20]محمد مفتاح الجنة
سعدك يا للي روريت[21]محمد مفتاح الجنة
سعدك يا للي لعبت محمد مفتاح الجنة

سعدك يا للي شو مفتاح الجنة"[23]

ميت[22]محمد

هذا بالإضافة إلى حسن الاستهلاك و ذلك بالإعلان عن حلول المولد النبوي الشريف على غرار مولديه: " أبو محمد عبد المؤمن المديوني"[24] و فيها مدح و تبرك بشهر ربيع الأول قائلا:

شهر ربيع زارنا يا حبـدا أهـلا به من زائر متفقد

في كل عام مرة تـهدي لنا أزهاره مبـشرا بالمولد

أيا ربيع لك العلا فارق للعلا فضلا و لا تسمع لقول مفند

و يا ربيع لك المفاخر كلها و لك الشهور أدلة كالأعيد"[25]

و على هذه الطريقة الافتتاحية بالإعلان عن مولد سيد الأنام جاء نشيد "آمولود".

آمولودآمولود هذا مولود النبي

و عيد المولد عيد سلام و أمان فهو لا يحتاج إلى الذبح مثل عيد الأضحى و لا إلى إطلاق البارود و لا إحراق المفرقعات المزعجرة مثل ما يحدث في وقتنا الحالي، فيأتي المطلع لهذه الأغنية بالإعلان على مولده عليه السلام في شكل قصيدة قصيرة جدا:

"هَذِي زِيَادَتَكْ يَا سِيدْ الميلودْ

لا بِالذبِيحَه و لا بَالبَارُودْ"[26]

و قد يأتي المطلع فيه شوق و حنين إلى البقاع المقدسة كما جاء على لسان " أبي حمو موسى" في قصيدته بعنوان: " هل لي بزيارة بيت الله؟"

"ذرفت لتذكار العقيق[27]دموعي و ازداد شوقي للحمى و ولوعي

و الحب شب أواره[28]بظلوعي من لي بشملبالحمى مجموع "[29]

فينشد الأطفال على منوال الشوق و الحنين إلى بيت الله الحرام و المدينة المشرفة:

"هَذا مُولودُنا يَفرَحْ بِنا بِينَ مكة والمدينة

صلوا عليه صلوا عليه

أَطيُورْ اللي طارُوا فالسْمَاعَندُو دَارُوا

أَحُجَّاجْ بيت اللـــه ويلا شتوا رَسول الله

شتتـــاهُوْرِينـــاهْ فِـــي مَكـــة خلينـــاهْ

يَتوَضَّا ويَصلـــي ويْقرَ ف كتابْ الله"

و من الأغاني التي يتداولها الأطفال بهذه المناسبة أيضا قصد أجواء روحية و فكرية و عاطفية: و فيها مطلع الحنين و الشوق على غرار مولديات العصر الزياني:

"بِـــيـــن مكة والمدينة رِيـــحـــة الجـــاوي

يا النبي مـــحـــمّـــد الـــعَـــرْبِـــي

دَخلـــو بْـــنات الوَزِيرْ دَخـــلـــوا الإدَارَة

وَحْـــده تسُوق اللوطو وَحْـــدَه الـــطـــيّارَه

يا القـــمرة علي عَلي وْ ديـــــرِي دَارَة

محمّد و فـــاطـــمَـــة كِـــي النـــــوّارَه"[30]

هكذا تتسع القصيدة الدينية في نظر أصحابها لاستيعاب متغيرات الحياة بسهولة، فينعرج مبنى الأغنية من صميم الدين إلى الواقع الاجتماعي لتبرز دور المرأة التي اقتحمت ميدان الإدارة بل و حتى قيادة السيارة (اللوطو) و الطائرة، فيعود المعنى إلى السياق الديني بتمني أن يعلو القمر أكثر و يشكل دائرة شديدة البياض لتنير الكون شأنها في ذلك شأن

رسول الله و ابنته فاطمة رضي الله عنها، الذين أضاء الكون بنورهما المنبعث و هما القدوة للرجال و النساء.

و في أغنية تنم عن حرقة و لوعة عدم التمكن من زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم يتغنى الأطفال بهذه المقطوعة و التي جاءت بمطلع الإعلان للمولد و مدح له عليه السلام في البيت الأول ثم شوق لزيارة قبره عليه صلوات الله.

"سيـدْ الميلـودْ يَا نـوَّارْ سْعِيـدَهْ
جِيت نـزُورَكْ جَاتنِي الحَال بْعِيـدَهْ
سِيدْ الميلـودْ فـات مَنَا يَسَّارَى
عَندُو مَنديـل اخضَرْ كيْشَالِي بَنَالهْ"[31]

و يشبه الشعر الشعبي الرسول بالقمر و النور تعبيرا عن مكانته السامية و مقامه الرفيع في قولهم :

" يا القمرة علي علي و ديري دارة
مـحمد و فاطمة كي النواره"

و نجده مثل هذا التشبيه عند أبو محمد عبد المؤمن المديوني في البيت الثامن من مولديته:

فكأنه من نوره و بهائه قمر في جنح ليل أسود"[32]

و كذلك في قول الشاعر :

و لقد علا فوق السماوات العلا و سما إلى ذلك المحل السامي
في حيث لا ملك و لا فلك و نجم و لا علم من الأعلام"[33]

لا

و في مطلع المدح و التغني بالحبيب المصطفى كان لأبي جمعة التلاليسي التلمساني أشهر مولدية قال فيها:

نبي كريـم شرف الله قدره و فضله في القبل و البعد و الحال
نبي به سدنا على كل أمة فلا أمة إلا لنا تـحت إذلال
لمولده نور على الأرض قد بدا غذا دونه بدر الرجى دون إكمال"[34]

و فيها إشارات إلى السمو الروحي و مكانته عليه السلام و إلى الحقيقة المحمدية التي لا تشوبها شائبة على الإطلاق.

و حينما تغنى الشاعر " أبي محمد بن عبد المؤمن المديوني بشخص الرسول صلى الله عليه و سلم فقال:

" فيك استهل نبينا خير الورى في ساعة طلعت بسعد مسعد"[35]

فقد أنشد أبناء منطقة عين الصفراء في نفس المعنى:

" جاب الفرض جاب السنة جاب أمة تغدا اللجنة
سعدي بك يا النبي المختار يا والدي
سعدي بك، سعد التمر في الأسطاح"[36]

و قد اتخذت الأغنية من مونيم " سعد" تكرارا لازما في أغلب أبيات القصيدة.و هو في نفس الوقت تضمين من كلام عبد المؤمن المديوني:

و في ختام هذه الإضاءة نستطيع القول من خلال هذه العينات التي أوردناها في عجالة عن تأثر الشعبي للأطفال بالموديات، أنه قد تعددت المعطيات التي استمدها الشعراء

الشعبيون من المصادر التراثية باللغة الفصحى فنهلوا منها مواقف شخصية كخصال الرسول صلى الله عليه و سلم و أصحابه، و أحداث دينية كالاحتفال بمولده، و آثار إسلامية مثل مكة و المدينة و التعبير عن الشوق إليها، و سلوكات دينية كالحج و الصلاة، و قد بدت براعتهم في توظيف هذه الجزئيات و سخروها في استيعاب للإيحاء بأبعاد آرائهم المتعددة و إثرائها، فتراثنا العربي قد طبع بصماته على شعر الأطفال الشعبي، و ما أروع أن نستكشف في الأدب الشعبي خلجات الشعوب النفسية و اهتماماتهم الروحية على حد قول نبيلة إبراهيم.

هوامش و إحالات:

---

(1) أحمد قنشوبة، الشعر الغض، إقترابات من عالم الشعر الشعبي منشودات رابطة الأدب الشعبي، إتحاد الكتاب الجزائريين، الجزائر د.ط2006،ص14.

(2) شعيب مقنونيف، مباحث في الشعر الملحون الجزائري (مقاربة منهجية)، دار الغرب للنشر و التوزيع، وهران،2003، ص53.

(3) التلي بن الشيخ، منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر1990، ص12.

(4) محمد بن جميل زينو، منهاج الفرقة الناجية و الطائفة المنصورة، دار الشهاب، باتنة، الجزائر،1979،ص 43.

(5) ينظر، د. عبد القادر خليفي، من الموروث الثقافي الجمعي المغاربي (منطقة عين الصفراء نموذجا)، دار الأديب للنشر و التوزيع، الجزائر، د.تا، ص47، 48.

(6) أحمد زلط، أدب الطفل العربي (دراسة معاصرة في التأصيل و التحليل)، دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر، الإسكندرية، مصر،ط2، 1998، ص155.

(7) أحمد زلط، معجم الطفولة، مفاهيم لغوية و مصطلحية في أدب الطفل و تربيته و فنونه و ثقافته، دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر و التوزيع، القاهرة، ط1، 1421هـ- 2000م، ص19.

(8) عبد الفتاح عبد الكافي، الأدب الإسلامي للأطفال ، دار الفكر العربي، 1418هـ/ 1997م، ط1، ص35(بتصرف).

(9) في رواية: فايتة (بمعنى مارة).

(10) الراوية: منصورية بوعريشة، من مواليد1965(موظفة ببلدية تلمسان) رواية عن جدتها المرحومة طبيب عائشة المولودة سنة1897بركان المغرب الأقصى و المتوفاة سنة1980بالبقاع المقدسة.

(11) في رواية: يدوموني (بمعنى لا تفارقني المحن).

(12) في رواية: دخلوا عليا.

(13) في رواية: الكتوب عليا (بمعنى الكتب). الرواية منصورية بوعريشة.

(14) الراوية: فاطمة بن صالح من مواليد1964، رواية عن جدتها المولودة سنة1904م، و المتوفاة سنة1987م.

(15) ناصر صبار، الفلكلور، دار الغرب للنشر و التوزيع، وهران، 2004، ص59.

(16) المرجعنفسه، ص60.

(17) البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان، ابن مريم التلمساني، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986، ص129

[18]المرجع نفسه، ص129.

[19]رقيت بمعنى سقيت (الرضيع).

[20]النكاعة (بالعامية) و هي الرضاعة (بالفصحى).

[21]روريت: أي أسكتت الرضيع.

[22]بمعنى وضعت الوليد على ظهرك.

[23]د. عبد القادر خليفي، من الموروث الثقافي الجمعي المغاربي، ص51.

[24]ينظر، مخطوط زهر البستان في دولة بني زيان، نصوص شعرية، أ. أحمد حاجي، مجلة الفضاء المغاربي (مجلة دورية محكمة)، يصدرها مخبر الدراسات الأدبية و النقدية و أعلامها في المغرب العربي، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، العدد4، السنة السادسة، رمضان1428هـ/ أكتوبر 2007م، ص166.

[25]المرجع نفسه، ص166.

[26]الراوية: أمينة بوعزاوي (سيدة بيت).

[27]العميق: مدينة.

[28]أوراه: نيرانه.

[29]أبي زكرياء يحيى بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تقديم و تحقيق د. عبد الحميد حاجيات،ج2- المكتبة الوطنية، الجزائر، 1400هـ- 1980م، ص125.

[30]الراوي: أطفال حي162سكن – حي شتوان– تلمسان. جوان2007.

[31]- بنالة: منديل تضعه النساء على الرأس.

الراوية: مليكة بونوة، موظفة، 35 سنة، رواية عن أمها.

[32]مجلة الفضاء المغاربي، العدد4، ص166.

[33]أبي زكرياءيحي بن خلدون ، بغية الرواد، ص 211.

[34]أبيزكرياء يحيى بن خلدون، بغية الرواد، ج2، ص140.

[35]الفضاء المغاربي، العدد4، ص168.

[36]د. عبد القادر خليفي، من الموروث الثقافي الجمعي المغاربي (منطقة عين الصفراء نموذجا)، ص51.